النسج المهلهل في إبراهيم الثاني

جودة القصة تأتي من تلك الارتباطات الوثيقة بين شخصياتها ، فتلك الشخصيات مثل اعمدة الخرسانة التي يعتمد عليها في إقامة البناء ، وتلك العمدة وسيلة لغاية ، ولا تبنى لأننا مفتونون بها ، وإلاَّ أصبحت كالمسلات الفرعونية غاية في حد ذاتها ، ومع وجود تلك الأعمدة وهي تؤدي دورها في الخفاء ومن الداخل ليظهر لي البناء ككل متكامل في النهاية .

والقصة كالكائن الحي يغذي بعضه بعضا ، ولكن لا يعيش بعضه عالة على البعض الآخر ، فكل الأعضاء والأجزاء تعمل جاهدة لتحقيق هدف واحد ، هو إنماء الجسم وإعطاء صورته الكاملة .

أما قصة (إبراهيم الثاني) فلا تشعر – بعد قراءتها – أنها كائن متكامل بل هي شيء لم تتوافر له أسباب الاكتمال والاستواء والتماسك ، فلا رابط بين اجزائه ، وتلك الأجزاء مصابة بالجمود والشلل الذي يمنعها من النمو والاستواء .

والقصة تقع في أربعة فصول ، والرابط الوحيد بين تلك الشخصيات هي الشخصيتان الرئيسيتان إبراهيم وزوجه (فتحية) ، وهاتان الشخصيتان لا تلمح – على امتداد القصة – عليهما أي سمة من سمات التغير أوالتطور أو النمو وأهم عنصر الذي يميز الفن القصصي ويعطيه تلك المكانة العالية بين الفنون مفقود وهو عنصر الحركة الذي يمنحها الكثير من التشويق والإثارة .

ويعرض الفصل الأول علاقة (إبراهيم) المتزوج ، بتلك الفتاة التي تجد فيه الرجل الزين الوقور لتطمئن وتسكن إليه بدون خوف أو وجل ، ويجد إبراهيم فيها

ما يجدد شبابه ويقطع تلك النغمة الرتيبة ، ويبدد ظلال الملل والسأم بينه وبين زوجه (فتحية) .

وفي الفصل الثاني يعقده كله ليبين كيف تم زواجه من (فتحية) .

أما في الفصل الثالث فتظهر شخصية لم يكن لها أي وجود او صلة بالشخصيات أو الأحداث التي كانت في الفصل الأول أو الثاني ، وإنما كما ظهرت في الفصل الثالث تختفي في نهايته ، وهي شخصية (عايدة) والتي تجد في إبراهيم أذنا صاغية لتبث ألآمها وأشجانها ، ويعرض لنا ظروف تلك الشخصية ، فقد كانت لها أخت متسلطة طمعت في مال أمها ، وأرادت الاستحواذ عليه دونا عن (عايدة) وكانت أمها تدخره لتامين مستقبل عايدة التي لم تكن قد تزوجت بعد واصيبت عايدة بداء في عينيها كادت معه أن تفقد بصرها ، وولد كل هذا شعورها بالنقص وضعف أملها في أن تتزوج فلا مال لديها ولا جمال ، ولا نسب ، ورأت فارس أحلامها في ابن عمها ، ففكرت أنها لو أسلست له العنان ولم تضن عليه بما يطلبه الرجل من المراة لفازت به ، فمنحته ما طلب ، ولكنه اخلف ظنها وبعد ان قضى وطره هجرها بلا رجعة ، ولم يبق لها من الدنيا غير إبراهيم ، التي ساقته الأقدار لها ولكن إبراهيم متزوج ولا يرتضي بديلا عن زوجه ، إذن فالطريق أمامها مسدود ، وشيئا فشيئا تذبل عايدة وتجف ويسلمها كل هذا إلى الموت .

أما في الفصل الرابع فيعود القاص إلى أحداث الفصل الأول ليستكمل حكايته مع (ميمي) والتي بدأها في الفصل الأول وأنهاها في الفصل الرابع . ولا أدري لم أخر ما كان حقه التقديم ، فالعلاقة بين أحداث الفصل الأول والرابع علاقة تتابع واتصال ؟

وإن أردنا أن نصنف (إبراهيم الثاني) إلى أي نوع من أنواع الكتابات فهي قريبة من أدب الاعتراف ولا تزد عن ذلك .

الحب والوجود المفقود في إبراهيم الثاني :

تنتاب الإنسان وهو في مرحلة عمرية معينة أحاسيس توحي له أنه قد آن الآوان كي ينفض يده من الحياة والوجود .

وهذا الحكم لا يصدر من خارج الإنسان ، وإنما من داخله ن إنه لم يعد قادرًا على استساغة الوجود أو استمرائه ، فقد دخل في طور الشيخوخة ، ويجب أن يلتزم بما تلزمه به تلك المرحلة ، وذلك الإحساس يتحول مع الإلحاح الدائب إلى وسواس يقض على الإنسان مضجعه ، ويسمم خواطره وأفكاره ، وللإنسان منطقة دفاع ذاتي ، لذلك نجده يسارع ليكذب هذا الوسواس ، ويحاول أن يثبت أنه مازال في عنفوان الشباب ، وأنه قادر على ممارسة حياته كما كان يمارسها وقت أن كان شابا ، وأنه يستمرأ وجوده بكل قوة ، ومازال الوجود يحمل له في طياته من الطاقات ما يضيف إلى حياته لونا وطعما وأريجا . والإنسان لا يجد وسيلة إلى تنفيذ ذلك سوى المرأة ،تعاونه وتعضده كي يخرس أصوات هذا الوسواس ، وينفي هذا الإيحاء ، وفي اثناء ذلك يرتد الرجل إلى طور المراهقة مرة أخرى من خلال اهتمامه بالحب والجنس الآخر ، ومحاولة غض البصر عن علاقته الثابتة بزوجته تلك العلاقة التي يمقتها ؛ لأنها تحمل له من الرتابة والملل والتعود ما يقوي في نفسه الإحساس بالشيخوخة وينشط الوسواس .

فهو يبحث عمن يجدد له إحساسه بالحياة ، عمن ينشط كيانه للاستقبال الصافي النقي لإيقاعات الوجود حوله ،يقول إبراهيم الثاني عن نفسه في صفحة

(٧) (وكان في العقد الخامس من عمره ، ولكنه كان ذا وسواس وكان أخوف ما يخاف أن يكون قد شيخ أو أشرف على الشيخوخة ، ولم يكن لهذا الوهم ما يسوغه سوى إرباء إحساسه بالحياة على القدر الذي تنسى به الراحة فيها) .

وكانت زوجه تحس به وبما ينتابه من هذا الإحساس ، فكانت تبذل من جانبها ما يساعده على الوقوف ضد هذا الإحساس:(وكانت امرأته ذكية رحيبة أفق النفس بعيدة مطارح العين ، وكانت تتوخى أن تجدد نفسها له وتحرص على أن تحيطه بجو من الشباب وكانت ترجو بهذا أن يجد بعلها ما ينعشه وينشطه ، ويميط عنه اذى الإحساس بالشيخوخة المخوفة أو المتوهمة).

وإن كان هذا النوع من الزوجات نادر الوجود ، فلا تجد زوجة تحرص على أن توفر لزوجها من يشاركها في قلب وفكر زوجها . فغن المرأة أحرص ما تكون على أن تكون الوحيدة المتربعة على قلب وعقل زوجها ، ولكن كانت زوجه(فتحية) تفعل ذلك لأنه ، (لم تكن تخشى عليه الفتنة فقد كانت تعرفه رزينا حكيما رحيبا محتشما) .

ولكن ألا يكفي إبراهيم حب زوجه له ؟ لا سيما وإن هناك إلتقاء في الطباع والمشارب ، وهذا الذي جعله يغير من صديقه (حامد) ذلك الذي كان سيتزوج (فتحية) وطبع (فتحية) هو الذي جعل إبراهيم يعرض عن زواج (كريمة) ويرغب في الزواج من فتحية ، ولم يكن الوحيد الذي رأى هذا الرأي ، بل صديقه (حامد) رأى مثل هذا التوافق مما جعله يقول – وقد سمعه غبراهيم من طريق خفي – (٣٣) : (إنك خليقة أن تحبي إبراهيم فإنه من هؤلاء الخياليين الذي تعجبين بهم يحلم بدنيا سعيدة حافلة بالخير له ولمن حوله من أهل وإخوان) .

فرغم هذا الالتقاء بين النفسين والكفيل بأن يجعل حياتهما متجددة باستمرار لاسيما وأن(فتحية) تحب إبراهيم حبا صادقا ، إلاَّ إن إبراهيم لا يقنع بحب زوجه له ، لأنه كما يقول في صفحة (٨) :(كان يخشى أن يكون حبها له عادة أو بفضل الذاكرة وتشبثها بما نعمت به منه في شبابهما ن فاشتاق أن تحبه غيرها واشتهى أن يسمع كلمات الحب والإعجاب منفم آخر) .

إذن المر لم يزد عن كونه نوعًا من المراهقة ، أم أن تلك رغبة طبيعية يشعر بها الإنسآن إذا ما بلغ تلك السن ،أن يكون محبوبا من غير زوجه، لأن حب الزوجة ليس معقودا بالمرحلة التي يمر بها ، أو تلك الفترة الزمنية الراهنة ، فحب الزوجة قد يكون نابعا من العادة ، أو بما شهدته معه من لذلت ومتع في عصر شبابها لذلك فهي متعلقة به .

ووجد ما يبحث عنه في (ميمي) التي تركت كلية الطب تحت إلحاح والدها والتحقت بدار المعلمات ، وكان قد طلق والدها أمها وتزوج بغيرها ، ولكنه لم يتخل عن تحمل مسئوليتهما المادية .

وتوثقت العلاقة بين (إبراهيم) و (ميمي) ، وإن لم يسترح إبراهيم لهذا الوضع أو لتلك العلاقة ، وإن كانت تمده بما يحتاجه وتملأ عليه وجوده وتثري إحساسه ووجدانه ن يقول في صفحة (٩) : (وكان هذا يسره ويسوؤه ، فأما وجه السرور فذاك أنه وجد فتاة لا ينقصها المعجبون والعشاق ترضي غروره بهذه القناعة وتقوي شعوره بانه مازال كفؤا للحياة ، وإن ما كان يخشاه لم يكن إلا وهما وسواسا أورثه إياهما تلف الأعصاب . وأما ما ساءه – كما قال لها مرارًا – فذاك ان عمر هذه

الصلة لا يمكن أن يكون إلاَّ محدودًا ، فإنه أسن منها بأكثر من خمسة عشر عامًا فهي تستقبل الدنيا ، وهو يستدبرها شيئا فشيئا) .

ويشب في صدره صراع لا يكون له أي تأثير إجابي في سلوكه ،فهو مع (ميمي) يشعر بتأنيب الضمير له ، فما ذنب (فتحية) وماذا فعلته حتى يتلهى عنها (بميمي) ، ثم أنهلم يتزوج بها والأيام تمضي ومن الواجب أن تبحث ميمي وهي في تلك السن عمن يكمل مشوار حياتها ، شاب يماثلها في السن والتفكير والطباع . ويحاول إبراهيم أن يقنعها بذلك ولكن تجيبه بقولها (١٣) : (شاب ؟ شاب إيه ؟ ماذا أصنع بالشباب ؟ بالطيش والغرور ؟ إذا حاولت أن أضع له اللجام ، نبا في العنان ، وإذا القيته له جمح ، وأنا الشقية في الحالين ، ثم الأولاد والبيت والطبخ . لا يا سيدي بدري . بدري . كل شيء في أوانه . ثم ما عيبك أنت ! رجل رزين حكيم مجرب . ولم يذهب شبابك كما لا تفتأ تزعم . أو تحسب أن الشباب سواد الشعر ونضارة الجلد ؟ إنك بنفسك أصبى من ألف شاب وأنا أجد في صحبتك ما لا يعرف الشباب كيف يتيحونه لي ...أن لي كل يوم جديد، متعو افيدها منك ، وقد رفعتني إليك وأخلق بالشباب أن يهبط بي معه) .

وبعد ذلك يحاول إبراهيم إقناع ميمي أن تصلح من شأن قريبها (صادق) المنلوجست إلى أن – وبعد تجارب عديدة وعنيفة – تكلل مساعيها في النهاية بالنجاح وتفلح في إصلاحه ويسلس لها قياده .

أما إبراهيم ، فرغم محاولته تلك – محاولة التقريب بين(ميمي) و (صادق) – فلم يكن ينسى ما يريده من ميمي ، فكان يحرص على أن يكون لديها وأسلوبه في تجدد مستمر ، فأخشى ما يخشاه هو الملل (٩٩) : (وكان إبراهيم يحرص على تنويع

أحوالها معه . بل لقد كان يتقي أن يكون كلامه على وتيرة واحدة . أو نسق لا يتغير وكان يخشى أن تقول لنفسها (إني أعرف ماذا سيقول لي حين يلقاني وبأي كلام سيبدأ حديثه) وكان لهذا يتحرى أن يخلف ظنها . فيلقاها كل مرة بجديد من القول والاستقبال والاقتراح والمتعة وكان هذا لا يخلو منمشقة وعسر . ولكنه كان يهون الأمر على نفسه بقوله : (إن من الجمود الذي ينبغي أن يتقيه الإنسان أن يجري في حياته مجرى واحد) .

فاخشى ما يخشاه الرتابة والملل ...يريد كل لحظة تمر به أن تكون لها لون خاص لا تشابه اللحظة السابقة عليها . تحمل له معاني جديدة باستمرار . فقد سأم من الملل والحياة الرتيبة . يود أن يكون مثل النحل الذي يتنقل بين الرياض والبساتين . تهبط على زهرة وترتفع عن زهرة اخرى .تأخذ شذى تلك وتمتص رحيق هذه . إنه يبحث عن وجود مفقود وسط بساتين الحب والغرام ...لذلك نجده مع ميمي ثم عايدة .ومن قبلهما زوجه (فتحية) وهو نفس السبب الذي جعل إبراهيم الكاتب يحي (شوشو) و (ليلى) ومن قبلهما (ماري) وهذا هو التشابه بين الإبراهميين . الكاتب والثاني . إن كلاهما يبحث عن وجود مفقود . يقول إبراهيم الكاتب في صفحة (٢٠٦) :

(ولم يكد إبراهيم قد سلا شوشو . ولكنه تسلى ولم ينقص حبه لها . ولكنه تعزى بحب سواها . وقد ينكر القارئ أن يتسع القلب الواحد لحبين . غير أن الواقع كان كذلك وعلى أنهما كانا حبين من طرازين متباينين لا يمنع أحدهما الآخر ولا يزاحمه ولا يصعب لذلك أن يعيشا في القلب متجاورينكما يتجاور في القلب حب الوالدين . وحب البنين وحب الأخوة .وحب الزوجة وحب الصديق . حب

الأب ، أو حب الفنون ، أو غير ذلك ، وكلها محاب ولكنها مختلفة في مصادرها وآثارها واختلافها هو الذي يوسع لها ضمير الفؤاد) .

إن الذي عليه إبراهيم الثاني – ومن قبله إبراهيم الكاتب – ليس دعارة في العواطف والمشاعر ، ولكنه قلق متوتر يبحث عن وجود مفقود منه ولا يكف عن هذا البحث ، ولكن أهذا الوجود الذي يبحث عنه سيجده من خلال حب ميمي له ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فما مفهوم الحب الذي تعطيه له ميمي ، (١٣٤) : (أتراه يمكن ان يكون من ذلك الضرب الخيالي الذي يعز في الحياة والذي تكون فيه التضحية بالذات وإنكار النفس ، بل فناؤها لذة ما بعدها لذة ! وحدث نفسه أن هذا كلام فارغ وأن الأقرب إلى العقل والأرجح في الظن ، هو أن ميمي لا تنطوي له على أكثر من صداقة كريمة لا تبلغ درجة الحب المستغرق الآخذ بالكليتين . ولكن هبها ...هبها تحبه !! إنها إذن تكون مسكينة فما يستطيع أن ينيلها فوق ما تنال من وده إلاَّ بخيانة (تحية) ، وهي لا ينوي ولا يستمرئ أن يخونها ولا موجب لأن يعني نفسه بهذا ، ولكل شيء أوانه ولكنه مع ذلك لم يسترح ولم يكف عن تقليب الأمر على كل وجه) .

إذن طبيعته تأبى عليه الخيانة ، لأن الانطلاق الحر غير المقيد بأي وازع أخلاقي لا يتم إلا بخيانة لزوجه (تحية) ، لنه إذا أحب ميمي أحبها بكل كيانه ويرفض هذا الحب المغرق في المثالية ، يريد حب واقعي يسعد به نفسه وجسده فهو في صراع بين الإخلاص لزوجته وبين حبه لميمي ، فهو يصبو إلى وجود عسير التحقيق لأن هناك قيود ، وهناك الضمير والالتزام الخلقي والالتزام أمام ميمي فهي قد اطمانت وسكنت ووثقت به ، وهو إذا ما طلب منها ما يطلبه الرجل من

المرأة ما ضنت به عليه ، بل تعطيه ما يريد بدون تفكير وهي قريرة العين منشرحة الصدر.

والإنسان حر في أن يلتزم بهذا السلوك الخلقي ، وحر أيضا في أن لا يعبأ به ولكن مع أيهما يظفر الإنسان بالسعادة ؟ أحينما يكون محاطا بالاخلاقيات والالتزامات وحريص على احترامها أم حينما يخترق تلك الأخلاقيات بدون وازع من ضميره ؟ إن الإنسان يجد اللذة والسعادة والمتعة في أن يشبع كل ما تصبو إليه النفس ، ويجد الألم إذا ما كبح جماح النفس وحرمها من المتع واللذات . هذا أول ما يتبادر إلى الذهن عند الإجابة عن هذا السؤال المطروح ، ولكن إبراهيم هنا يظهر لنا جوهر الوجود الإنساني ومصدرًا من مصادرالسعادة اللامتناهية ، يظل يصعد فيها بلا توقف حتى يصل إلى ذروة السعادة .

يقول محدثا (ليلى) في صفحة (١٤٥) : (سأصدقك ...نعم رغبت في الكثير وزهدت فيه ، أو قنعت بما دونه أو رضت نفسي على القناعة لا خوفا من ضنك بل خوفا عليك من نفسك. والإنسان طماع يا ميمي ولا نهاية لما يريد أو آخر ما يتطلع إليه ويشتهيه ، وما يكف عن الرغبة إلا حين تنقطع أنفاسه ويملأ تراب الأرض فمه ، ولكن هناك ما هو أجل وأمتع ايضا من غدراك المآرب . هناك لذة القدرة على ضبط النفس عن الإسراف والشطط بغير موجب . هذا الإدراك الصحيح الدقيق لقيمة ما ينال المرء بالقناعة وللقيمة الحقيقية لما يشتهي وما تلح به الرغبة فيه إذا ناله ... هذا الوزن الدقيق لهذه الأمور هو الذي يساعد على كبح النفس بلا أسف أو شعور بخسارة) .

وتلك هي النظرة الصادقة الصائبة لفهم كنه الوجود الإنساني ، فما كل ما يتمناه الإنسان يدركه ، ولو صب الإنسان جام غضبه على الوجود حينما يعجز عن تحقيق رغبة أو هدف لأصبح الوجود جحيما لا يطاق ، ولكن لابد وأن يتنازل الإنسان عن بعض طموحاته حتى يستطيع أن يحتمل الوجود ، حينئذ لا يشقى الإنسان ولا تظلم الدنيا في عينيه ، وبتحكمه في نفسه وقناعته يجد السعادة تملأ حياته ، ويكون – في تلك اللحظة – الوجود غاية في ذاته لا ان يسخر هذا الوجود لجلب متعة ذائلة ، وقد يظفر الإنسان أو لا يظفر. إذن وجد إبراهيم السعادة ووجد إكسيرها السحري في القناعة وكبح النفس كي لا تشطط بافنسان وتضل به ضلالا بعيدا .

وحين يدرك هذا ، يدرك أن عليه التسليم بواقعه الوجودي ، وأن يظل عبدًا للزهرة الواحدة ، وحبيس الروضة لا ينتقل غلى غيرها ، وعليه أن يقنع نفسه حتى ولو كان الوجود يسوده اشباح الملل وأطياف السأم ، عليه أن يحتمله وأن يخلق قيم جمالية ليستطيع احتمال الوجود .

أما والأمر هكذا ، فعليه إذن أن يقنع (بتحية) زوجة ، ولا يتعداها إلى غيرها ودار حوار بينه وبين نفسه بشان هذا في صفحة (١٦٩) : (هل استطيع أن استغني عن تحية ؟

فهزت نفسه رأسها بشدة أن (لا) .

قال : (كلا ، لا أحسبني قادرًا على ذلك ، أو مطيقا له ،وما أظن بتحية إلاَّ انها صارت (عادة لي) .

فقالت نفسه : (نعم عادة ...ولم لا ! أي ضير في هذا ! إن كل إنسان حزمة من عادات تكبر وتضخم ، شيئا فشيئا ، على الأيام مع ارتفاع السن ، ويحسن أن توطن نفسك على هذا ، وليست تحية بالعادة المفردة ن فإن هذا الحساب العقيم الذي لا تزال تؤديه وتكلفني اداءه ، وتسود به عبشي معك عادة أخرى ، وأقول الحق أنك اتعبتني وقد مللت صحبتك ، ولوكنت تصدر عن رايي ، وتعمل بمشورتي ولكنك عنيد مكابر) .

وقال : (وكيف بالله أصنع وأنت تشيرين بالرأب ونقيضه ؟) .

فأحست نفسه انها نهورت ، فأقصرت وقالت : (مهلا ، فليس هذا وقته ، لقد كنا نقول إنه لا غنى عن تحية ، وأنها عادة لك وانتهينا إذن) .

قال : (كلا لم ننته ، فهل أنا أحبها ؟

قالت : (يا أخي ما قيمة هذا ؟ ثم انك تحبها ولا شك – حبا هادئا لا فاترًا عارما ، كما كان في البداية ، ولكل فورة سكون ولكل جديد لذة ثم تبلى الجيدة وتذهب معها اللذة كالثياب) .

فناربها مقاطعًا :(قبحك الله ، تشبهين تحية بثوب يبلى ويطرح ويخلع على فقير ؟)

قالت : (ها ، ألم اقل لك أنك تضمر لها حبا وإكبارا ؟) .

قال : (دعي هذا . المهم أنه لا غنى بنا عنها ولا طيب للحياة بدونها) .

قالت : (ولماذا كل هذا النفور ، بل الفزع من ذكر الحب ، أتراك أصبحت كمصاصة القصب التي ذهب عصيرها ؟ فأنت تنفر مما لم تعد قادرًا عليه لأنك جففت ونشفت ؟

قال : (أما أنك لثقيلة ، ثم أنك لم تصدقي ، فما عجزت عن الحب ، ولكن ...)

قالت مقاطعة : (مع غيرها ...اختشي يا شيخ ،هبها ملتك كما مللتها وذهبت تنشد التسلي كما تنشده ...)

فصاح بها : (اخرسي)

قالت : (إذن أنصفها ، ولا تكلفها غلا ما تكلف نفسك ، وإلاَّ زهقت روحها إذا ظلت على التصبر والتشدد ، ولم تذهب تتعزى وتتلهى مثلك وعلى فكرة ... أن روحها تكاد تزهق الآن من القلق والاضطراب ، يا ما أقل ذوقك معها وأسخف رعايتك لها ، ألا ترى أن الأوفق أن تفضالجلسة لتخرج إليها لترد روحها ؟)

قال : (صدقت ، وإني لوحش ، فلنعجل ، إذن لا معدى عن عمل نعمله ؟)

قالت : (طبعا ، وإنه لسهل)

قال : (سهل ؟ تقولين سهل ؟)

قالت : (نعم إذا كانت علة الفتور أنها لم تستطع أن تجدد نفسها لك فجددها أنت لنفسك) .

وبذلك يخرج بنتيجة هامة ، وهي إذا لم يكن الوجود يتوافق ومزاجنا أو كان خاليًا من القيم الجمالية التي نصبو إليها بكل جوارحنا فعلينا أن نخلق تلك القيم ليكتسب الوجود بهاء ورواء ويأتلق حسنا وجمالا . ولذة الخلق عن الإنسان لا تعادلها لذة ، فهو في عمله هذا – تجميل الوجود – يجد متعة و وسعادة تجعل لحياته هدفا ومغزى .

وتأتي (عايدة) ، وتجد هناك تشابها كبيرًا بين ميمي وعايدة ، فهما لا يميلان إلى الشباب ، وإنما يميلان إلى الرجال الناضجين ، وإبراهيم يمثل النموذج المفضل لها ، وكانت – عايدة – مصابة بمرض الوسواس ، وقد تعرضت ما سبب لها فقدان الثقة في نفسها ، حينما أعرض عنها ابن خالتها بعدما منحت له الكثير من ذات نفسها ، وتخيلت أنها مصابة بالصدر وفي طريقها للإصابة بذات الرئة ، والأزمات العصبية تنتابها بين الآونة والأخرى ، فهي حطام بشري لا حول له ولا قوة وامتدت أسباب إبراهيم بأسباب هذا الحطام البشري ، فبث فيه الحياة والقوة والثقة ، فبعد أن كانت تنظر إلى الوجود نظرة سوداء قاتمة ، استطاع أن يجعلها تتأمل الحياة من جانبها المشرق المضيء ، تقول له : (ولكن ما فائدة الحياة ؟ ما هو الخير الذي نصيبه فيها ؟) .

فقال :(آه ... هذا سؤال من العبث أن نلتمس له جوابا ، فالحياة لا يسأل فيها عن الفائدة منها ن وإنما علينا أن نحياها على خير وجه وأصلحه . ثم أنك أنت الملومة إذاكنت لا تصيبين منها خيرا ، .الدنيا كلها أمامك فماذا يمنعك أن تنشدي هذا الخير الذي تسألين عنه ؟ تمسكين عن التماس الخير ونشدانه والسعي إليه ثم تروحين تلومين الحياة وتسخطين على الدنيا ؟ هل هذا عدل ؟ تقعدين وفمك مفتوح منتظرة أن تحشود لك الملائكة سكرا ، ثم تشكين إذا حشته الأيام ترابا ؟ لا يا سيدتي لومي نفسك) .

وأخذ إبراهيم يوحي لها أن الإنسان التعس هو من جعل نفسه تعسا فالحياة حوله جميلة وملآنة بكل ما يسعد الإنسان وعلى الإنسان أن يغتنم الفرصة ليظفر بالسعادة والمتع .

ويفلح إبراهيم في إحياء هذا الحطام وإحياء كل ما انطوى وذبل وذوى ، ولكن عليه أن يتحمل ضريبية هذا العمل ، فعليه أن يلبي ماتتطلبه تلك الحياة ، وعليه أن يستجيب لما تطلبه تلك النفس التي كانت ذابلة ، وهذا الجسد الذي كادت أن تجف منه ماء الحياة .

وطلبت منه (عايدة)ما يروي ظمأ المرأة إلى الرجل ولا سيما وهي تعتقد أن المرأة لا تطلب ولا تشتهى إلا لكونها أنثى ، وإنها إذا أرادت أن تستبقي الرجل إلى جانبها فبأسلحة الأنثى . وما زودتها به الطبيعة من ادوات الفتنة والإغراء ن ولكن إبراهيم رفض أن يلبي نداء الأنثى ، لأن هناك زوجه (تحية) وهو لا ينوي أن يخونها ، ثم ان طريق عايدة مسدود ، حتى ولو لم يكن مسدودا ، فليس هو هذا الأساس الذي تقام عليه علاقته بعايدة ، وحينما الحت في النداء من خلال هذا الظمأ الذي تشعر به ، اصر هو على الرفض من خلال التزامه أمام زوجه ، وخوفه من نفسه على عايدة ، وحينما استيقنت منه الرفض سخرت منه ، وحذرته إن لم يلبي نداء الأنثى لديها ويروي ظمأها ، فستلقي بنفسها على أول رجل تصادفه وقادت في سخريتها منه قائلة له (٧٤): (الآن اقتنعت أنك لا تستطيع أن تحب امرأة ، إنك آلة مفكرة لا إنسان من لحم ودم) .

وخاف إبراهيم : (إذا تمادى في الرفض أن يحيلها إلى حطام مرة أخرى . فقد تصدم من خلال هذا الإعراض . وأقدم إبراهيم على إطفاء ظمأ تلك الأنثى ولكن بحذر ودون شطط) .

وأرجع إبراهيم تلك الفورة الجنسية التي انابت عايدة إلى الظروف التي مرت بها ، (٧٥) : (وخطر له أن لعل قلة اطمئنانها وكثرة قلقها واضطرابها يثيران إحساسها الجنسي أو يخيلان إليها إن أرضاءه – على نحو ما – هو علاجها مما تكابده) .

فهو يحاول أن يهزم في عايدة الأنثى وما يرتبط بها من خضوع واستسلام وعبودية وبهيمية ، يريد أن يوقظ فيها المرأة الإنسانة التي تعتز بكرامتها وعزتها تلك التي تعلم أن الرجل يطلبها ليس من كونها أنثى فحسب ، بل أيضا من كونها رفيقا وأنيسا وصديقا له وصدر حنون في مشوار الحياة . يريد ان يبعث فيها الثقة كي تحاول أن تضبط اندفاعها الجنسي . لأنه إذا ما تغلب الوازع الجنسي على المرأة بدون قيد أصبحت لا تزد عن كونها جارية في سوق الرقيق تباع وتشترى كأنها سلعة من السلع الرخيصة . يقول في صفحة (٧٩) والحديث على مسمع من عايدة : (ولعرفت نفسها معرفتها لأدركت أنها لا تحتاج إلى البذل . وإنما تحتاج إلى الثقة بالنفس . وتفتقر إلى اطمئنان القلب وانتفاء الخوف ولعرفت أن حدة الإحساس هو الزي الذي اتخذه الضعف والخوف . وفي الوسع تلطيف هذه الحدة وكبح هذا الجماح . فإن الإحساس الجنسي ليس مستعصيا على الضبط ولو راضت فتاتنا نفسها على السكون إلى الصداقة والعطف والقناعة بالمودة التي تكون بين الرجلين ولا يندر ان تكون بين رجل وامرأة. ووثقت بنفسها ونفت عنها هذه

المخاوف التي تتلف أعصابها ، وتدفع إحساسها في مجرى غير صالح ولا مأمون لو فعلت ذلك لاستراحت ونعمت) .

إنه يحاول أن يجعلها تتسامى بغريزتها الجنسية ، وأن تحولها من مجراها الطبيعي إلى مجرى آخر . وهذا لا يتم أبدا لأنه وقوف أمام الطبيعة ، وإن تم فلوقت محدود ، وقد مضت (عايدة) حينا من الزمن في ثبات وسكون ، وكأن ليس بها حياة ، فلم تطلب ما يطلبه الأحياء ،أما وقد حيت فلابد وأن تعيش وأن تستنفد من الوجود كل ما فيه متّ رحيق إلى أقصى مدى ، أما ما يقوله إبراهيم لها ، فهو وعظ جاف لا يقوم على فهم لأعماق النفس الإنسانية وغرائزها ، وكلام إبراهيم قد يؤتي ثماره مع إنسانة سوية ، أما مع من تعتقد أن عن قريب ستموت فالحيز الزمني المتاح لها قليل ن والمتعة واللذة التي دلها عليه إبراهيم لا تستطيع نسيانها أو عدم التقرب المحموم ناحيتها ، يقول في صفحة (٨٠) :

(ولا يتزعزع يقينها بأن عمرها عمر الورد ، وما كادت تلتقي به حتى انطلقت تريد أن تعدو بغير عنان وتحاول وتطلب أن تعتصر وتختزل في القليل الباقي لها من العمر ، فيما تعتقد كل ما يخطر على بالها أن تستفيده من متع الحياة ولذات العيش) .

ويبذل كل ما في طوقه أن يكبح جماح تلك الأنثى ، وأن يوقظ فيها مشاعر وأحاسيس يكون من شأنها أن تهدئ نار الغريزة ، ولكن كان حديثه لها كما يقول الشاعر: (رب مستمع لك والقلب في صمم) فما يفيد النصح والإرشاد والوعظ مع تلك النفس المتفجرة فيها مشاعر الأنثى المحرومة بكل اندفاعها وقوتها وحيوتها ؟ ما من علاج لها ، فإما الإرتواء كي تطفئ نيران الغريزة وسعيرها التي تلهب

أحشاءها ليل نهار . وإما وأد تلك المشاعر والإحاسيس ، ومحاولة قتل هذا الجسد الذي يجري في عروقه جمرات الظمأ والحرمان ، ولا خيار ثالث ، وآثرت عايدة الخيار الأول ، وهو أن تدفن نفسها بالحياة ، وشيئا فشيئا جفت وذبلت ووافها الموت ، وعلله إبراهيم أنه : (أشبه بالانتحار فيما يبدو لي) .

فالطاقات المتفجرة في النفس التي تريد الارتواء عظيمة ، ولكن الوجود محدود ، مثلها في ذلك مثل الزهرة التي تحتاج إلى الماء والظل . ولكن شاء حظها أن تنبت في صحراء جرداء ، لا ماء بها ولا ظل ، وظلت الزهرة تمد جذورها هنا وهناك وحينما لم تجد ما يروي ظمأها تقلصت جذورها وجفت سيقانها فسقطت أوراقها .